



المدينة المنورة

في كتابات الشيخ علي الطنطاوي ورحلاته

ولد الشيخ علي الطنطاوي في دمشق عام ١٩٠٩ م، ونال الإجازة من كلية الحقوق سنة ١٩٣٣ م، وعمل في التعليم ثم في سلك القضاء، وتدرج حتى بلغ أعلى المناصب في المحاكم السورية. وهو من أقدم معلمي القرن العشرين ومن أقدم صحافيه، وهو أيضاً من أقدم مذييعيه. ومنذ عام ١٩٦٤ م استقر في مكة المكرمة للتدريس في كلية التربية، ليقيم فيها (وفي جدة) حتى وفاته في عام ١٩٩٩ م.

خلالها قدم برنامجيه: «مسائل ومشكلات» في الإذاعة، و«نور وهداية» في التلفزيون، اللذين قدر لهما أن يكونا أطول البرامج عمراً في تاريخ الإذاعة السعودية والتلفزيون السعودي، بالإضافة إلى برنامجيه الأشهر «على مائدة الإفطار» في رمضان؛ ليختم نشاطه في الكتابة والتأليف بكتابة ذكرياته في ثمانية مجلدات.

وفي آخر سنوات حياته اعتزل النشاط العام والناس إلا قليلاً من المقربين يأتونه في معظم الليالي زائرين، فصار ذلك له مجلساً يطل من خلاله على الدنيا، وصار منتدى أدبياً وعلمياً تبحث فيه مسائل العلم والفقه واللغة والأدب والتاريخ. وقد سعدت بحضور عدد من تلك الليالي الأدبية التي لا تنسى.



إبراهيم مضواح الأنسي - السعودية

«المدينة المنورة في وجدان الطنطاوي وكتاباتاته»

«رحلة الشيخ الطنطاوي إلى الحجاز»

أما رحلة الطنطاوي من دمشق إلى المدينة المنورة ١٩٣٥م، فقد بيّن في ذكرياته أن القصد منها: «فتح طريق للسيارات يربط دمشق بمكة، وكان يومئذ حلمًا من الأحلام»^(٤).

ولم تكن الرحلة سهلة، بل كانت شاقة للغاية، إذ كانوا يشقون طريقاً في الصحراء والقفار بالسيارات لأول مرة في تاريخ هذه الصحراء، يقول: «كانت سياراتنا أول سيارات تطأ هذه الصحراء، من يوم خلق ربي هذه الصحراء»^(٥).

ولهذا فقد كانت رحلة شاقة، أوفت بهم على الهلاك في بعض الأحيان، ويصف ما لقيه ورفاقه من عناء تلك الرحلة بعدها بخمسين سنة فيقول في ذكرياته التي كتبها عام ١٩٨٥م: «مر الآن على هذه الرحلة خمسون سنة كاملة، ولا تزال أحداثها متمكنة من ذهني، ماثلة أمام عيني أمضينا فيها على الطريق من دمشق إلى مكة ثمانية

تحتل المدينة المنورة منزلة عظيمة في وجدان الشيخ علي الطنطاوي، وقد عبّر عن هذه المنزلة، في مواضع كثيرة، وبأساليب متعددة، فهو يقارن بين المدينة المنورة وبين دمشق التي نشأ فيها ودرج في ربوعها، وأحبها غاية الحب، وكتب عنها كما لم يكتب أحدٌ عن مدينته، ثم تأتي نتيجة المفاضلة لصالح المدينة المنورة، مما يعطي صورة واضحة من موقعها من نفسه، فيقول: «لو خُيرْتُ (لا سمح الله ولا قدر) بين أن تصيب بلدي جائحة أو أن تصيب المدينة. لا فتديتُ المدينة بالشام ومن فيها»^(١).

ويصدر الشيخ الطنطاوي في عاطفته تجاه المدينة المنورة عن روح إسلامية، فحبه مرتبط بمنزلتها الرفيعة في الإسلام فهي: «مدينة الرسول ﷺ التي تشرفت به مرتين: مرة بحياته ص فيها، ومرة بمثوى جسده في ثراها»^(٢).

ولأن المدينة المنورة تحتل هذه المنزلة الرفيعة في وجدان الطنطاوي، فهو ليس فقط يتمنى لها مستقبلًا عظيمًا، بل يقطع بأنها: «ستمشي صعوداً

إن شاء الله، في طريق العلاء حتى تعود مرة أخرى عاصمة الدنيا، وقصبة الأرض المسلمة، كما كانت يوماً من الأيام، يوم كانت جيوش الإسلام تحارب بالحق والعدل دول الأرض كلها معاً تحارب الروم في الشام وفي مصر، والفرس في العراق؛ كلما استنجد قائد بعمر، هز عمر هذه القرية الصغيرة، فأمدته بالجنود وبالقواد، لم ينضب لها معين، ولم يجف لها ينبوع، وكيف وهي مدينة محمد ﷺ»^(٣).





والعبر، ومن الأخبار والطرائف، لا أزال أتحدث عنها ما نفذ ما عندي منها، وإن مضى عليها نصف قرن»^(٦).

بهذا الأسلوب القصصي يعرض الطنطاوي طرفاً من المعاناة التي عاناها ورفقاؤه، في رحلتهم تلك، التي لم يكن مضطراً لخوضها لولا الشوق إلى موطن النبوة ومهوى أفئدة المسلمين، الشوق الذي ألح عليه أن يفاخر بالمشاركة في هذه الرحلة على ما يكتنفها من مشاق ومخاطر، ويعلل ذلك بقوله: «لما غلبني من الشوق إلى هاتيك المعاهد، إلى الأرض التي استقبلت آخر رسالات السماء إلى البلد الذي ولد فيه رسول الله، وحبیب كل مسلم، والبلد الآخر الذي عاش فيه ومات فيه، والذي يحس من يزوره أن كل مكان فيه، وكل جبل وكل حائط (أي بستان) يحدثه حديث المصطفى الحبيب، ويتلو سيرته»^(٧).

◀ مشاهدات في ضواحي المدينة..

وقد أفاض الطنطاوي في وصف الرحلة منذ

وخمسين يوماً، لم تكن نمشي فيها على الحرير، ولم نتقلب في نعيم الراحة والأنس والأمان، ولم نكن نسلك الجادة التي يؤمن فيها العثار، بل كنا نعتسف البوادي، نسير في أرض نبصر أولها ولا ندري أين ينتهي بنا آخرها، نطأ الحجارة، نواجه الصخور، نفرق في كثبان الرمل الناعم، فتخرج من سيارتنا، ونربط الحبال بأكتافنا وأعناقنا، لنخرج السيارات الفارقة فيها، ضعنا أياماً، بتنا ليالي والوحوش قريبة منّا، والعقارب كانت تدب من حولنا، ونحن ننام على الأرض، قلّ معنا الزاد فكدنا نشرف على الهلاك، وفقدنا الماء حتى إذا وجدناه والدود الأحمر يملؤه نزعنا العمائم (أي الفتر) من فوق رؤوسنا وصفيناه بها، فشربنا ما قطر من الماء ونفضنا الدود نقضاً... ذقتنا في هذه الرحلة العذاب ألواناً، ورأينا الموت عياناً أحياناً، أمضينا فيها شهرين في نصب وتعب، وفي خوف وحذر، ولكني خرجت منها بذخيرة من الذكر





خروجه من دمشق إلى أن عاد إليها، ولم يقتصر على وصف المعاناة، التي اكتنفت رحلتهم تلك، بل جاوزها إلى وصف المعالم التي مرَّ بها الركب في طريقهم إلى المدينة، ومن تلك المعالم بلدة (العلّا) التي يصفها الطنطاوي بأنها: «قرية صغيرة جميلة تقوم في وادٍ ضيق، تحف به هذه الجبال الجميلة الممتعة ذات الأشكال الغريبة، وتون أكثرها أحمر مخضر جميل، واتوادي كوادي العين الخضراء فيه العيون والسواقي والأشجار، وأمتع ما فيه هذه النواعير (السواني) ذات الصوت الموسيقي الفاتن، ولقد حسبتها في سكون الليل نايًا أو آلة موسيقية فسألت عنها فأخبروني أنها النواعير، وأن العوام من الوهابيين أرادوا منعها عند فتح الحجاز بحجة أنها من الطرب الممنوع»^(٨).

هكذا كانت العلّا عام ١٩٣٥م، لا تتجاوز حين قديماً وجديداً، فيها مدرسة وخمسة مساجد، يصفها الطنطاوي فيقول: «فيها حيّان، الحي الأعلى ويسمونه (الشقيق) وهو

من جهة الشام، والحي الأسفل ويسمونه (الحلف) وهو من ناحية المدينة، الحي الأول قديم والثاني جديد، وفيها خمسة مساجد، ومساجدها... غرف سقوفها من سعف النخل عليه الطين، وأرضها من الرمل الناعم، وهم يرون أن هذه هي السنة لا يجوز فيها غيرها، وفيها مدرسة ذات ثلاثة فصول، فيها ثلاثة معلمين ومئة وخمسون تلميذاً. وفي العلّا من العيون والسواقي والحدائق والزروع ما يذكر المرء بالغوطة ووادي بردى»^(٩).

هذه هي العلّا منذ ثمانين سنة، فما هي اليوم يا أبناءها ويا قريبي العهد بها؟

«مشاهدات الطنطاوي في المدينة..»

ويزداد الشوق إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلّم كلما اقترب الركب منه خطوة بعد خطوة..

وأكثر ما يكون الشوق يوماً

إذا دنت الخيام من الخيام

يقترّب الركب من جبل أحد الذي قال عنه صلى الله عليه وسلّم: «أحد جبل يحبنا ونحبه»، يقول الطنطاوي: «رأينا وجه أحد وعلى سفحه النخيل والبساتين ورأينا سلماً وهو جبل عال أسود، يقوم حيال أحد يحجب المدينة وراءه، فلا يبدو منها إلا جانب الحرة، وطرف النخيل»^(١٠).



ما بين عدوتيه فيقول: «خرجنا مع من خرج، فلم نجاوز السور، وترك عن أيماننا المحطة العظيمة.... حتى بدت لنا (الحرّة) السوداء الواسعة، فسلطنا طريقاً فيها جديداً، على يسار الطريق القديم الذي يهبط الحرّة، على سلم منقورة في الصخر، وهذه النقرة هي ثنية الوداع، التي طلع منها رسول الله صلى الله وسلم فاستقبلته الولائد بالدفوف ينشدن: طلع البدر علينا...

وسرنا في هذا الطريق نحواً من كيلين اثنتين، فأنتهينا إلى بئر عروة، التي حضرها الإمام الزاهد العالم عروة ابن الزبير، فكانت في قصره العظيم الذي اندثر، ولم يبق له من أثر، وهي أعذب بئر في المدينة وأطيبها، وكان ماؤها يحمل إلى الخلفاء وهم في دارات ملكهم، يؤثرونه على ينايع الشام وفترات العراق، إلى جانب البئر، قهوة جديدة، قامت على جذوع النخل، فجلسنا على كراسي مستطيلة، تتخذ في (مقاهي) الحجاز مجلساً وسريراً نطل على الوادي العظيم»^(١٣).

وبهذا يكون الوادي بين يدي الطنطاوي ورفقته، فيعود بنا إلى أسلوبه الوصفي الذي ينقل القارئ والسامع إلى صورة الوادي كمن يسمع ويرى فيقول: «والوادي رغب، بين عدوتيه أكثر من مائة متر، وعلى العدو الأخرى جبال حمراء جميلة المنظر، وقد غني الوادي وامتلاً، وكان السيل دفاعاً تلتطم أواذيه. وتصطخب أمواجه، يرمي بالزبد ويطوح بالفقايع، ويجري متكسراً وله خرخرة، وله دردة، وعلى جانب الماء حصباء واسعة، قد جلس فيها المدنيون حلقاً حول (سماورات) الشاي البراقة

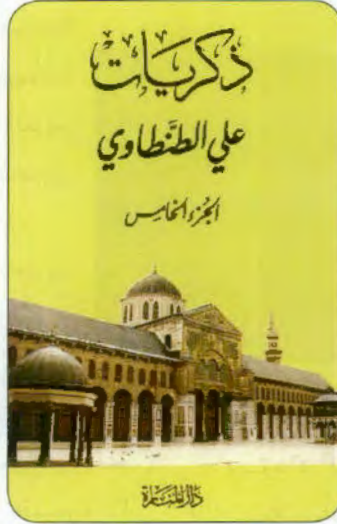
ويتبع خطوات الركب بالوصف الدقيق، في أسلوب سردي، ووصف قصصي عرف به الطنطاوي، منذ مطلع عهده بالكتابة، فهو وصافٌ من طراز أقرب إلى الأسلوب القصصي المتميز، ولنسر معه على مشارف المدينة حين يقول: «وكنا قد بلغنا هذا المضيق الصخري، بين هضبتي سلح، فتظرت في خريطة للمدينة كانت معي، وقلت للدليل: أما هذا (ذباب)؟ قال: بلى والله فما يدريك أنت؟ قلت: أما هذا (مسجد الراية)؟ قال: بلى، بلى، هذه هي ثنية الوداع. وخفق قلبي خفقاناً شديداً، وخالطني شعور بالهيبة من دخول المدينة، والسلام على رسول الله ﷺ، على ما في نفسي من الفرح والسرور»^(١٤).

ولنا أن نتصور حال الركب وهم يطلون لأول وهلة على مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اغتسلنا ولبسنا ثياباً بيضاً نظافاً، وتطيننا، ثم ركبنا في السيارات إلى المدينة، فلم نقطع سلماً حتى بدت لنا المدينة كصفحة الكف، يحف بها النخل، وتكتنفها الحرار، وتقوم في وسطها القبة الخضراء التي يثوي تحتها جسد السيد الحبيب محمد صلى

الله عليه وسلم، وتكشفت لنا دنيا كلها خير وحقيقة وجمال، وعالم كله مجد وفضيلة وجلال»^(١٥).

الخروج إلى العقيق؛

ومما يعتاده زوار المدينة والباحثون في تاريخها وآثارها التي ارتبطت في الذاكرة بمواقف وشخصيات أدبية، وأولها وادي العقيق الذي نتلّق اليوم حول عبقه التاريخي والأدبي، فقد كان له نصيب من ذاكرة الطنطاوي وقلمه، فيصف خروجهم إليه والسيل يملأ



وجه الأرض، وفرشت من حولها رمال حمراء ناعمة، كحوضٍ أعدَّ لتزرع فيه الورود»^(١٦).

فما كان منه إزاء هذا المشهد إلا أن استنكر على دليله هذا القول، وهنا يوظف الأسلوب الحوارى، لإبداء وجهة نظره حول الحالة التي آلت إليها قبور أهل البقيع، فيجيب مستنكراً على دليله هذا القول متهماً إياه بالسخرية، فيزجره قائلاً: «أتَهْزَأُ بي يا...؟» قال: لا والله، ولكنى أقول الحق، هذا قبر عثمان. قلت: ياللعجب! أتحرثون موضع قبر عثمان أمير المؤمنين لتزرعوا فيه الورود؟

العالية يغنون ويطربون، ما سمحت لهم (الحكومة) أن يغتوا ويطربوا»^(١٤).

«في البقيع»

واعذروني حين أنقلكم من الذكريات الندية في العقيق التي تعبق بجمالها وشجاها إلى البقيع بجلاله وهيبة الموت التي تجلله، فما لي في ذلك يد، إنما هو أمرٌ يفرضه علي تتبع خطوات رائدنا في هذه الرحلة الذي يحدثنا قائلاً: «خرجنا إليه (يعني البقيع) في صفرة الطَّفَلِ، وقد سكرت الريح، وسجا المساء، وكان اليوم روحاً، فما تجاوزنا أزقة المدينة الضيقة الملتوية،

وبدأ لنا سور البقيع الهائل، الذي أقاموه في وجه مدينة الموت، كيلا تبتلع مدينة الحياة.... وكنا قد بلغنا البقيع، فرأيتُه موحشاً مظلماً رهيباً... وشمنت منه رائحة الموت، فتهدبت دخوله في هذه الأمسية، وأزمت العودة ولكن صاحبي أصرَّ عليّ وشجعني، ثم أخذ بيدي. فإذا أنا وراء السور، وإذا ساحة فسيحة ممتدة



قال: أي ورد؟ كل القبور هكذا.... قلت: لعلك أخطأت القبر. اذهب فاقرأ اسمه. قال: قد طُمِسَتْ الأسماء فما عليه من اسم، ولكن ثق أنه هو. أعرفه من هذه الغضاة! وأشار إلى غضاة قريبة منه، لا أدري كيف دخلت حرم الموت فأُنست بها. وذكرتي دنيا مليئة بالصور، مترعة بالحياة، نفت عني بعض ما أنا فيه من الغربة والجزع، فقلت:

الجوانب، مظلمة الأرجاء، ساكنة سكون الموت. وليس فيها بناء ولا قبة ولا تابوت، كأنما لم يسمح لبشر أن ينصب في حرم الموت، معالم الحياة، أو يدنس دار البقاء بشارات الفناء»^(١٥).

وينتاب الطنطاوي العجب عندما قال له دليله إلى البقيع: «هذا قبر عثمان!» فيقول: «نظرت فلم أجد قبراً ولا شيئاً يشبه القبر، وإنما وجدت حجارة صغيرة قد صففت على



ما انتابه من شعور وهو يودّع المسجد النبوي الشريف فيقول: «صلينا المغرب في الحرم، وقمنا في الروضة مقاماً نسينا فيه الدين وما فيها. ونظرنا إليها كمن يطل عليها من نجم بعيد فيراها كذرة صغيرة تائهة في الفضاء. ثم خرجنا من المسجد من باب السلام، نسير في هذه الأسواق الضيقة المزدحمة بالحجاج، لا نتبّه إلى شيء فيها، لأننا تركنا قلوبنا في الحرم، حتى جاوزنا الأسواق إلى شارع العنبرية الفسيح... وسلكننا على وادي العقيق فذكرنا العقيق، وأهل العقيق، وشربنا من بئر عروة، وكان الليل قد أرخى على الأرض ستائره، فلم نعد نبصر مما حولنا شيئاً،



الروضة الشريفة

وكيف تعرف غيره من القبور؟ قال، ما أعرف إلا قبور آل البيت، وقد كنت أعرف قبر مالك فاختلط عليّ ونسيته، ولكن يعرفه إذا شئت (العمد حمّد) خادم المقبرة وبعض الشيوخ من أهل المدينة»^(١٧).

ويعترض المنطوي على هذا الإهمال لقبور هؤلاء العظماء الذين احتوتهم البقيع، فيقول: «لم أكن أفكر إلا في هؤلاء الأبطال الذين فتحوا الدنيا وملكوا العالم، ثم ضنوا عليهم بقبر يُعرف، أو اسم يُقرأ»^(١٨). ثم يُقرّ للبقيع بالانتصار فيخطئه لائماً ومعاتباً: «انتصرت أيها البقيع، فما وفيت ولا أنصفت.. جاءك

الأبطال الذين فتحوا الدنيا، ونشروا العدل على الأرض، وأضاءوا طريق الهدى للناس، ليستريحوا في أرجائك، ويناموا في حماك، فحرمتهم قبراً يعرف لهم، وحجراً تكتب عليه أسماءهم»^(١٩).

ثم ما يلبث أن يستدرك حذراً من أن يُتهم بتعظيم قبور الصالحين، أو التبرك بها، أو تقديس ساكنيها، لأنه يعلم أنها ما أهملت إلا بذريعة الخوف من الوقوع في الشرك، وليس بعيداً أن يُتهم الداعي إلى العناية بها بشيء من ذلك قليل أو كثير، ولهذا يُبادر إلى هذا الاستدراك، احترازاً من التهمة فيقول: «ما نريد منك أن تنقش على قبورهم آيات التمجيل والثناء فإن لهم من أسمائهم الكبيرة غنية عن كل تجميل وثناء، لكننا نريد ألا تنسى هذه الأسماء»^(٢٠).

الخروج من المدينة إلى مكة

رأينا المنطوي وهو يُطلّ لأول وهلة على الحرم النبوي الشريف، فيصوّر لنا اللذة التي تملّكته أمام جلالته المكان، ثم يصور لنا

فسكتنا فلم يكن يسمع إلا صوت السيارة وكلمة من أهدنا، تشق هذا السكون»^(٢١).

«المدينة في رحلة الطنطاوي عام ١٣٥٤هـ»

كنا مع الطنطاوي في رحلته إلى المدينة لفتح طريق السيارات بين دمشق والمدينة، وكانت تلك الرحلة عام ١٩٣٥م، وبعد عشرين سنة عاد الطنطاوي إلى المدينة، مرة أخرى، وكتب بعض مشاهداته في رحلته الثانية ضمن مقالة بعنوان: (الصلوات الروحية بين سورية والمملكة

العربية السعودية) نُشرت سنة ١٩٥٦م، وتضمنها كتابه من نفحات الحرم، وقد أشار فيها إلى ما لاحظته من العمل الدؤوب للدولة السعودية الفتية في تطوير الحرم النبوي الشريف فقال: «أما كبرى العجائب فقد تمت في الحرم، أنا أعرف حرم المدينة وأعرف تاريخ الزيادات فيه من لدن عمر وعثمان إلى الوليد وقايتباي وعبد المجيد، فلما سمعت خبر الإصلاح الأخير، حسبت أنها زيادة، وتوقعت أن أرى فيه توسيعاً يجيء من الأصل كالرفعة في الثوب،

وكنّت مهما بالفت في حسن الظن أقدرها رقعة من حرير، فلما جئت ورأيت وقفت شاخصاً لا أستطيع أن أنطق.

وتعمدت أن أدقق النظر، لأنتقد شيئاً، فأقول: يائيت أنهم فعلوا هذا وتركوا ذلك، فما استطعت أن أقول لما فعلوه ليتهم تركوه، ولا لما تركوه ليتهم فعلوه.

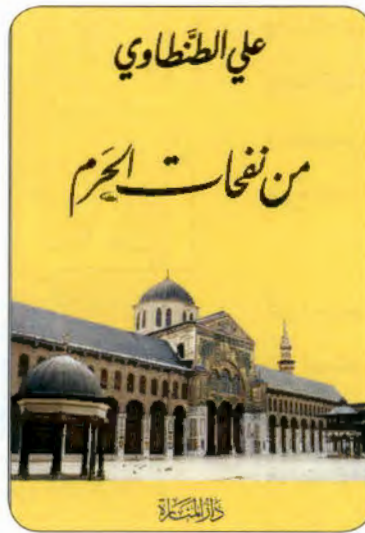
«عمل عظيم، عظيم عظيم»

«لقد صنع السعوديون للحرم، في هذه السنين القلائل، أكثر مما صنعه ملوك المسلمين جميعاً في ألف وثلاثمئة سنة»^(٢٢).

ويعود الطنطاوي للمقارنة بين ما كانت مكة والمدينة عليه أول عهده بهما وما انتهت إليه عند كتابة ذكرياته عام ١٩٨٥م فيقول في الجزء الرابع من ذكرياته: «لو وضعت أمامي الصورة الأولى التي عرفت فيها مكة والمدينة، ومواقع المشاعر فيها، لو ذكرت ما كانت عليه، وأظهرت ما انتهت إليه، لفركت عيني متعجباً كأنني لا أصدق ما أراه»^(٢٣).

تُرى لو كتب الطنطاوي مقارنة بين المدينة التي رآها عام

١٩٣٥م والمدينة اليوم ماذا كان سيقول.. أترك لكم قرائي الأعزاء التأمل في ذلك ■



الهوامش:

- | | | |
|---------------------------|-------------------------------|-------------------------------|
| (١) من نفحات الحرم، ص ١٢. | (٨) من نفحات الحرم، ص ١٣٥. | (١٦) من نفحات الحرم، ص ٣٩. |
| (٢) من نفحات الحرم، ص ١٢. | (٩) من نفحات الحرم، ص ١٣٧. | (١٧) من نفحات الحرم، ص ٣٩-٤٠. |
| (٣) من نفحات الحرم، ص ١٢. | (١٠) من نفحات الحرم، ص ١٢٠. | (١٨) من نفحات الحرم، ص ٤٠. |
| (٤) الذكريات، ٥٣/٣. | (١١) من نفحات الحرم، ص ١٢٢. | (١٩) من نفحات الحرم، ص ٤١. |
| (٥) الذكريات، ٥٦/٣. | (١٢) من نفحات الحرم، ص ١٢٢. | (٢٠) من نفحات الحرم، ص ٤١. |
| (٦) الذكريات، ٥٤-٥٣/٣. | (١٣) من نفحات الحرم، ص ٢٨. | (٢١) من نفحات الحرم، ص ٤٣. |
| (٧) الذكريات، ٥٨/٣. | (١٤) من نفحات الحرم، ص ٢٨-٢٩. | (٢٢) من نفحات الحرم، ص ١٣. |
| | (١٥) من نفحات الحرم، ص ٢٨. | (٢٣) الذكريات، ٢٤٧/٤. |